سورة الأعلى

سميت هذه السورة بسورة (الأعلى) لورود هذا اللفظ الشريف فيها، وه و اسم من أسماء الله الحسنى (الْأَعْلَى). وقد كان النبي ﷺ يعظم هذه السورة، عن النعمان بن بشير قال "كَانَ رَسُولُ اللهِﷺ يَقْرَأُ فِي الْعِيدَيْنِ وَفِي الْجُمُعَةِ ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾، وَ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾ قَالَ وَإِذَا اجْتَمَعَ الْعِيدُ وَالْجُمُعَةُ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ يَقْرَأُ بِهِمَا أَيْضًا فِي الصَّلَاتَيْنِ " رواه مسلم(١).

وحق لرسول الله ﷺ أن يعظمها؛ لما تضمنته من المعاني العظيمة، ولما تضمنته من المنة التامة عليه ﷺ بتيسيره لليسرى.

ولهذه السورة مقاصد متعددة، منها :

المقصد الأول: تنزيه الرب سبحانه وتعالى.

المقصد الثاني: بيان سماحة الشريعة.

المقصد الثالث: بيان وظيفة الرسول ﷺ.

﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ﴿٢﴾ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ﴿٣﴾ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى ﴿٥﴾ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى ﴿٧﴾ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى ﴿٨﴾﴾

﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴿١﴾﴾، ﴿سَبِّحِ﴾: هذا فعل أمر؛ أمر للنبيﷺ بالتسبيح، أي: التنزيه. فقول: (سبحان الله) اسم مصدر، أي تنزيهاً لله.

وينزه الله تعالى عن ثلاثة أمور:

---

(١) صحيح مسلم (878).

– أحدها: النقص: فله الكمال المطلق، فليس في صفاته نقص بوجه من الوجوه.فكل ما أثبته الله –تعالى– لنفسه فهو صفة كمال، لا نقص فيه بوجه من الوجوه. وهذا من معاني (المثل الأعلى). فله من العلم أتمه وأعلاه، ومن السمع أوسعه، ومن البصر أكمله، لا نقص في صفة من صفاته، (أحاط بكل شيء علماً)، و(وسع كل شيء رحمة)، و(لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء).

– الثاني: العيب: وهي الآفات، فهو منزه عن العمى، وعن الخرس، وعن الصمم، وعن المرض. فكل آفة، فالله بريء منها سبحانه.

– الثالث: مماثلة المخلوقين: فأي وصف يختص به المخلوق لا يمكن أن يثبت للخالق، وأي وصف يختص به الخالق فلا يمكن أن يتصف به المخلوق. فالاشتراك في الأسماء والصفات، إنما يكون في المعنى العام، الكلي، المطلق، الذي يكون في الأذهان، ويمتنع وجوده في الأعيان. فإذا أضيف الوصف إلى الموصوف تخصص.

والله – تعالى– أثبت لنفسه سمعاً، وبصراً، وأثبت للمخلوق سمعاً، وبصراً، وهذا الاشتراك إنما هو اشتراك في اللفظ، وفي المعنى العام، الكلي، المطلق. فالمعنى العام المطلق للسمع، هو إدراك الأصوات، والمعنى العام المطلق للبصر، هو إدراك المرئيات. وهذا محله الأذهان، والعقول، فإذا أضيف تخصص. فإذا قيل: سمع الله، صار وصفاً مختصاً به، لا يماثله فيه مخلوق. وإذا قلنا: سمع المخلوق، صار وصفاً خاصاً يختص به المخلوق. وقد جمعت ذلك عائشة – رضي الله عنها – في قولها "الْحَمْدُ للهِ الَّذِي وَسِعَ سَمْعُهُ الْأَصْوَاتَ، لَقَدْ جَاءَتِ الْمُجَادِلَةُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ تُكَلِّمُهُ وَأَنَا فِي نَاحِيَةِ الْبَيْتِ، مَا أَسْمَعُ مَا تَقُولُ ": فَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا﴾ [المجادلة:١] إِلَى آخِرِ الْآيَةِ)رواه أحمد في المسند، والنسائي ، وابن ماجه[٢] فأثبتت سمعاً لله، وسمعاً لها، لكن سمع الله ﷻ، وسع الأصوات،

---

[٢] المسند (2419) واللفظ له، النسائي في الكبرى (5654)، سنن ابن ماجه(188) وصححه الألباني.

ولا يمكن أن يشاركه أحد في هذه الخصيصة، وأما سمعها فإنه قاصر، وناقص، بدليل أنها في جانب الدار، ويخفى عليها بعض كلام المجادلة، وقس على ذلك بقية الصفات.

والله ﷻ يأمر بتسبيح نفسه، وبحمد نفسه، فالحمد، والتسبيح، يكمل أحدهما الآخر. فإن الحمد يعني وصف الله بصفات الكمال. فهو إثبات. والتسبيح يعني تنزيهه عن صفات النقص، والعيب، ومماثلة المخلوقين، فهو نفي. وإنما يحصل العلم بالله بالنفي والإثبات معاً. ولهذا جاء في الحديث: (الْحَمْدُ للهِ تَمْلأُ الْمِيْزَانَ.وَسُبْحَانَ اللهِ وَالْحَمْدُ للهِ تَمْلآنِ - أَوْ تَمْلأُ - مَا بَيْنَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ)رواه مسلم[٣].

﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾: أمر الله تعالى بتسبيح اسمه، فهل المراد تسبيح الاسم، أم تسبيح الرب نفسه ؟ **قولان للمفسرين:**

- **القول الأول**: الآية على ظاهرها، فمعنى تسبيح الاسم، أي تنزيهه أن يشاركه أحد في اسمه، فلا يجوز أن تطلق أسماؤه الحسنى على الأصنام، كما فعل المشركون، حينما أطلقوا اسم اللات، والعزى، ومناة، على معبوداتهم، فأخذوا اسم اللات من الإله، والعزى من العزيز، ومناة من المنان. فمن تسبيح اسم الله ألا يشتق منه اسم للأصنام ، وألا يظن أنه يماثل اسم المخلوق، أو يلحقه ما يلقه من لوازم النقص والعيب.

- **القول الثاني**: أن المراد سبح ربك، ولكنه عبر بالاسم، أو أدخل ذكر الاسم، لتحصل بذلك فائدة الجمع بين تسبيح القلب، وتسبيح اللسان. فيكون معنى ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾ ما نقله ابن القيم، رحمه الله، عن شيخ الإسلام: "﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾أي: سبح ربك بقلبك، ولسانك، واذكر ربك بقلبك، ولسانك. فأقحم الاسم تنبيهاً على هذا المعنى، حتى لا يخلو الذكر والتسبيح من اللفظ باللسان،... إلى أن قال: (وعبر لي شيخنا، أبو العباس ابن تيمية - قدس الله روحه- بعبارة لطيفة، وجيزة، فقال: المعنى: سبح ناطقاً باسم ربك، متكلماً به،

---

[٣] صحيح مسلم (223).

وكذا سبح ربك ذاكراً اسمه ...(ثم قال) وهذه الفائدة تساوي رحلة لكن لمن يعرف قدره)[٤] ويلاحظ في هذه السورة أنه قال في أولها﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾، وقال في آخرها: ﴿وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾، فأمر في أولها بتسبيح اسم ربه، وذكر في آخرها عمن أفلح وتزكى، أنه﴿ذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾ فذكر الاسم في الموضعين؛ في الموضع الأول بالتسبيح، وفي الموضع الثاني بالذكر، وذلك ليجمع الإنسان بين الوصفين: تنزيه ربه بقلبه، وذكره بلسانه. وهذا أعلى أنواع الذكر، وهو ما تواطأ فيه القلب واللسان، ثم في الدرجة الثانية: ما اختص به القلب دون اللسان، ثم في الدرجة الثالثة: ما كان باللسان دون القلب. فللذكر مراتب، ودرجات.

﴿ٱلْأَعْلَى﴾، اسم من أسماء الله الحسنى، وهو على صيغة أفعل التفضيل، يعني من له العلو المطلق. وله أسماء مقاربة مثل:(العلي)، و(المتعال). فالأعلى يدل على كمال علو الله ﷻ.

وأهل السنة والجماعة يثبتون ثلاثة أنواع من العلو:

النوع الأول: علو الذات: وهو الاعتقاد بأن الله – ﷻ– بذاته فوق سمواته، مستوٍ على عرشه، بائن من خلقه، ليس فيه شيء من خلقه ولا في خلقه شيء منه. وهذا النوع من العلو، يدل عليه الكتاب، والسنة، والإجماع، والعقل، والفطرة. ونازع فيه المعطلة، وأنكروا علو الله بذاته. وممن أنكر علو الله فوق سمواته: الجهمية، والمعتزلة، والأشاعرة، ومن على شاكلتهم، أنكروا أن يكون الله ﷻ فوق مخلوقاته! وهذا من أعجب العجب. فقد قامت دلائل الكتاب على إثباته، حتى قال بعض علماء الشافعية: (إن في القرآن العظيم أكثر من ألف دليل على إثبات علو الله)[٥]. ودلت عليه دلائل السنة، وانعقد إجماع الأمة على هذا، وقطع العقل السليم باستحقاق الله لهذا العلو؛ لأنه صفة كمال، وفطر الله الخلق على ذلك؛ فما من إنسان إلا ويجد في قلبه نزوعاً إلى العلو حين يدعو الله تعالى، وضرورة بالتوجه إلى العلو.

---

[٤] بدائع الفوائد (34/1).

[٥] مجموع الفتاوى (121/5)، الصواعق المرسلة (1279/4).

وإنما نازع فيه هؤلاء المحجوبون، الذين جعلوا بينهم وبين القرآن حجاباً مستوراً، من بدع الكلام المذموم، والمقدمات الفاسدة.

النوع الثاني: علو القدر: وهو الاعتقاد بأن الله - ﷻ- له صفات الكمال، التي بلغت الغاية في الحسن والقدر. وهذا لا ينازع فيه أحد من أهل القبلة. وهو معنى قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل: ٦٠]. وإنما وقع النزاع في تطبيقاته.

النوع الثالث: علو القهر: وهو الاعتقاد بأن الله -تعالى- علا على كل شيءٍ وقهره، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٨] وهو محل اتفاق بين أهل القبلة.

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢﴾ يعني أوجد من العدم. ومعنى (سَوَّى): أي جعله متناسب الأجزاء، والأعضاء، قائماً بما يناسبه. ويشبه ذلك قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧﴾ [الانفطار: ٧].

﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣﴾ أي أنه سبحانه، سبق تقديره للمخلوقات، وهداها. والمقصود بالهداية هنا الهداية العامة، وذلك أن الهداية أنواع.

فقد ذكر ابن القيم-رحمه الله-في كتابه (شفاء العليل)[٦] أن مراتب الهداية أربع:

1. **الهداية العامة:** وهي هداية كل مخلوق إلى ما يناسبه، ويصلح حاله. وهي المقصودة في هذه الآية، وتشمل الإنس، والجن، والطير، والوحش، وجميع ما خلق الله ﷻ، فهداه الله تعالى لما يقيم أوده، ويصلح معاشه.

2. **هداية الدلالة، والبيان، والإرشاد:** وهي أخص من الأولى، لأنها تتعلق بالمكلفين. والمراد بها: ما أظهر الله تعالى من شرعه، ودينه، لعباده. وهذا النوع من

---

[٦] شفاء العليل (65).

الهداية يقوم به الأنبياء، والعلماء، والدعاة، والمصلحون . ويدل عليها قول الله تعالى﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ﴾[الشورى٥٢]و﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ [فصلت: ١٧].

3. **هداية التوفيق والإلهام:** وهذه أخص من التي قبلها، لأنها تختص بمن سبقت لهم من الله الحسنى. فليس كل من هدي هداية دلالة، وبيان، وإرشاد، يهدى قلبه. فالنبي ﷺ خاطب الناس جميعاً، وبين لهم، ودلهم، وأرشدهم، فلم يهتدوا جميعاً، لأن هداية التوفيق، والإلهام، بيد الله – ﷻ– وهذا هو معنى قوله تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [القصص: ٥٦].

4. **الهداية إلى طريق الجنة، أو طريق النار:** وهذا النوع ليس في الدنيا، ولكنه في الآخرة. قال الله ﷻ– في حق المؤمنين﴿ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ ﴾[محمد٥]. قال بعض المفسرين: يعني يهديهم إلى طريق الجنة. وقال في حق الكافرين: ﴿ ۞ ٱحْشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُواْ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الصافات: ٢٢-٢٣].

والمراد بالآية النوع الأول، وهي الهداية العامة التي بها مصالح الحياة والمعاش. وهذا باب واسع لمن أرسل فيه طرفه، وأعمل فيه عقله، فإنه يجد من حكم الله، ﷻ، وتصريفه لمخلوقاته، الشيء العظيم. وقد أفاض فيه ابن القيم –رحمه الله– في (شفاء العليل)، وفي (مفتاح دار السعادة) وعقد فصولاً بديعة، مدهشة، في التفكر في بعض مخلوقات الله، وكيفية هدايتها؛ فعقد فصلاً يتعلق بالنمل، وكيف تحفظ أقواتها، والنحل وكيف تبني بيوتها، والحمام وكيف معاشها، والهدهد وكيف يعرف مواضع الماء، وسائر أصناف المخلوقات، بكلام ينعش القلب. هذا، وابن القيم –رحمه الله – لم يتح له أن يطلع على ما اطلع عليه

المتأخرون من أنواع المعارف؛ فإن العلوم الحديثة، قد كشفت من معاني الربوبية، ما يحار الطرف في النظر إليه، ويحار العقل في التفكر فيه، حتى إنه لما ألف بعض الملحدين، من منكري وجود الله، كتاباً سماه "الإنسان يقوم وحده " يعني أنه مستغن عن وجود خالق، ألف عالم غربي كتاباً في الرد عليه سماه "الإنسان لا يقوم وحده". وقد ترجم هذا الكتاب إلى العربية بعنوان "العلم يدعو إلى الإيمان"، و مؤلفه وإن كان غير مسلم، لكنه ذكر حقائق من حقائق الربوبية، يمكن أن يوظفها المؤمن الحق في التدليل على توحيد العبادة. ومثله ما يذكره بعض المشتغلين بمسائل الإعجاز العلمي في القرآن. على أن مسائل الإعجاز العلمي، ينبغي التعامل معها بحذر، لأن بعض المشتغلين بها يغالون أحياناً، ويحملون النصوص ما لا تحتمل، ربما كان بعض ما قالوه صواباً، لكن لا علاقة له بالآية، ولا يجوز أن نحمِّل كلام الله ﷻ معنىً ليس مراداً له، حتى وإن كان ذلك المعنى صحيحاً في نفسه، لكن لا يجوز أن نقول: إن مراد الله بالآية، كذا، وكذا، إلا ببينة ودليل. وإذا كان هذا من قبيل النظريات، والفرضيات، فإنه لا يجوز أن تحمل عليه النصوص، لأن النظريات والفرضيات، قد يثبت بطلانها. وأما إن كان هذا الذي توصلوا إليه من قبيل القطعيات، والحسيات، والمشاهدات، فإننا ننظر؛ إن كان لفظ الآية يحتمله فلا بأس، أن نسوقه في هذا المقام، وإن كان لفظ الآية لا يحتمله، بل هو أجنبي عنه، فإنه لا يجوز أن يفسر كلام الله بغير مراده. فلينتبه لهذا من يقرأ في مسائل الإعجاز العلمي.

﴿وَٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلۡمَرۡعَىٰ ۝٤﴾، ﴿ٱلۡمَرۡعَىٰ﴾: موضع النبات، والخضرة. فالذي يخرج المرعى هو الله ﷻ. تمر بالأرض اليباب، القفر، يوماً، فلا ترى إلا الهواء يعصف بها، والغبار يثور منها، ثم يرسل الله -تعالى- عليها سحائب المطر، فتسقيها، فتمر بها وهي تهتز خضراء، ذات بهجة. من الذي أخرج المرعى؟ من الذي حفظ هذه البذور لسنة كاملة، وسقاها حتى عادت هذه الأرض الصفراء المغبرة، تهتز خضرة وجمالاً، و تتفتق ألواناً، وتتضوع وعبقاً، وأريجاً ؟إنه الله ﴿الَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى﴾.

﴿ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحۡوَىٰ ٥ ﴾ هذه دورة أخرى. ﴿ فَجَعَلَهُۥ ﴾، أي الله ﷻ ﴿ غُثَآءً ﴾ أي جافاً، هشيماً، و﴿ أَحۡوَىٰ ﴾أي يابساً، مائلاً إلى السواد. وذلك بعد أن يمر به ما شاء الله تعالى من الوقت، وتشتد عليه حرارة الشمس.